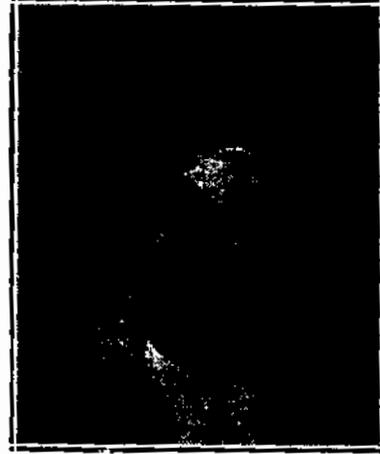


عبرة الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس في تاريخ الاسلام
كله صفحة أدمى إلى الشجن
والأسى من تاريخ
الأندلس ؛ ففي الأندلس
وحدها بادت أمة اسلامية
عظيمة ، ومجيت حضارة
اسلامية زاهرة ، ولم تبق
نعمة من تلك الصفحة
الباهرة سوى أطلال
وذكريات دارسة



وقد زالت دولة الاسلام في الأندلس ومجيت صفحته وأبيد
أبناؤه منذ أربعة قرون ؛ وقام فوق الأرض شمس غير الشمس ،
ودين غير الدين ، وحضارة غير الحضارة ؛ ولكن المأساة ما تزال
حية في صدر كل مسلم يستعرض هذه الصفحة ، وما زالت تثير
في النفس بالغ الحسرات

عاشت دولة الاسلام في الأندلس زهاء ثمانية قرون ؛ ولم
يكن غريباً أن تفيض في هذا القطر النائي المنزل عن باقي الأقطار
الاسلامية ، بمد أن لبثت قروناً تمزق بمضها بعضاً ، ولكن الغريب
هو أنها استطاعت رغم جراحها الدامية أن تصمد للمدو الخالد
التربص بها مدى قرون

على أن تاريخ الأندلس نفسه يقدم الينا سر هذا الفناء البطيء
الذي سرى إلى الدولة الاسلامية منذ قيامها ؛ وسنحاول أن
نمتعرض في هذه الصفحة المريمية بعض العلل الجوهرية التي
أصابت المجتمع الاسلامي في الأندلس منذ تكويته ، وغدت بعض
الزمن حاء ذريعاً يقضم أسسه ويقوض دعائمه ، وما زالت به حتى
استنفدت قواه وحلته إلى هاوية الانحلال والمدم

كان فتح العرب لاسبانيا فاتحة عصر جديد وبدء تطور عظيم
في حياتها العامة وفي نظيمها الاجتماعية . ومع أن العرب شغلوا حيناً

بتوطيد الفتح الجديد ودفع حدوده ، فانهم استطاعوا في أعوام
قلائل أن يقيموا عناصر النثر والفوضى وأن ينظموا إدارة البلاد
المفتوحة ، وأن يثبوا في الجزيرة روحاً جديداً من الأمل والحياة .
وقد قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، وتنفس الشعب
نسيم الحرية ، وفرض المسنون الضرائب بالسواوة والعدل بعد أن
كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم
وحرياتهم وأموالهم ، وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع
قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم . أما في شأن الدين
وحرية العقائد والضمائر فقد كانت السياسة الاسلامية مثلاً أعلى
للتسامح ، فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين والاعتقاد ؛ وكانت
تأدية الجزية هي كل ما يفرض على الذميين من النصارى واليهود
لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية شعائرهم ، ومن دخل الاسلام سقطت
عنه الجزية وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات .
وفي ذلك يقول العلامة دوزي : « لم تكن حال النصارى في ظل
الحكم الاسلامي مما يدعو الى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت
عليه من قبل . أضف الى ذلك أن العرب كانوا يتصفون بكثير من
التسامح ، فلم يرهقوا أحداً في شئون الدين . . . ولم يعمط
النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حيدوا للفاتحين تسامحهم
وعدلم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرننج » ثم يقول
دوزي عن آثار الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربي من بعض
الوجهه نعمة لاسبانيا ؛ فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة ، وقضى
على كثير من الأدواء التي كانت تعانها البلاد منذ قرون . . . »
غير أن هذه الدولة الجديدة التي بعثها الاسلام في اسبانيا ،
كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف والخطر ، وكان هذا
المجتمع الجديد ، الذي جمع الاسلام شمله ومزج بين عناصره يضطرم
بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصية .
كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ،
وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش يبعضون قاداتهم
ورؤساءهم من العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والغانم
الكبيرة ، وكثيراً ما رفعوا اللواء المصيان والثورة . وكان المسلمون
الأسبان ، — وهم المولدون أو البلديون — محدثون في الاسلام
يشمرون دائماً بأنهم رغم اسلامهم أحط من الوجهة الاجتماعية

ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير كان أصل اللغة العربية التي اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبي القرشي المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر تفار عليها ، ومحافظ على سلامتها ونقاها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها ؛ أضف الى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد في الطباع والخلال مما كان يذكي بينهما أسباب التنافس والتباعد ، وقد كان الاسلام مدى حين عاملاً قوياً في جمع الكلمة ، ولكن المصير الأول ما كاد ينقضى حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدتها وعادت تصنف بوحدة المجتمع الاسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد في الأقطار القاصية التي افتتحها الاسلام بالسيف ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة التي تعمل تحت لوائه مجالاً واسعاً للتنافس والتطاحن ؛ وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الاسلامى المضطرب الذي قام بإسبانيا

وكان البربر الذين اشتركوا في فتح الأندلس واستثماره عنصراً خالداً في إذكاء هذا الخلاف ؛ فكانت هذه المعركة المزدوجة : العرب فيما بين أنفسهم ، ثم العرب والبربر ، هي قوام المجتمع الأندلسي

كان هذا الخلاف المستمر يقضم أسس المجتمع الأندلسي الفتى ، ولم يمض على قيامه أربعون عاماً حتى تحولت الأندلس الى بركان مضطرب من الحروب الأهلية ؛ واستمرت هذه المعارك الداخلية زهاء قرن ونصف ، ولم يقف تيارها قيام دولة أموية جديدة ، ولم تتخللها في ظل هذه الدولة سوى فترة يسيرة من السكينة والتوطد ، منذ الناصر الى المنصور . بيد أن خطراً جديداً كان يترصص بهذه الدولة الاسلامية التي يمزقها الخلاف الداخلي ، هو خطر الملكة النصرانية الاسبانية ، التي نشأت صغيرة متواضعة ونمت بسرعة مذهشة ، وأخذت تنافس الملكة الاسلامية ، وتحسين فرص الايقاع بها ، ولم تظن الأندلس الى هذا الخطر الدائم ؛ وما كاد صرح الدولة الأموية ينهار ، حتى وثب المتغلبون على أشلاء الأندلس يقنسمونها ، وقامت دويلات الطوائف في المقاطعات والمدن ، تنافس بعضها بعضاً ، وتحاول كل منها أن

من سادتهم العرب . ذلك أن العرب ، رغم كون الاسلام ، يسوى بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون في ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناسب الثقة والنفوذ ؛ هذا الى أن العرب في الأقطار القاصية التي افتتحها بالسيف لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس التي كانت داعماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الانكليزى السكسونى بمد نفسه أشرف الخليفة . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر مافى انجتمج الجديد من عوامل التفكك والانحلال ؛ فقد كانت عصبية القبائل والبطون ما تزال حية في الصدور ، وكان التنافس بين الزعماء والقادة يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها في نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستمر نار الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع الى ما قبل الاسلام ، منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الاسلام في حمير وتبع أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاخرة ، بينما كانت مضر بدواً خشنين يخلصون لغير ويؤدون لهم الجزية ؛ وكانت بينهما خصومات وحروب مستمرة طويلة الأمد ؛ ولنا في « أيام » العرب ووقائعها المشهورة أمثلة رائجة من هذا النضال . قال ابن خلدون « واستمرت الرياسة والملك في هذه الطبقة اليمنية أزمنة وآماداً بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم في بنى المنذر ، وبالشام لفسان في بنى جفنة ويثرب ، وكذلك في الأوس والخزرج ، وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية ، وأحياء ناجمة ، وكانت في بعضهم رياسة بدوية ، وراجمة في الغالب الى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك وظهرت فريش على مكة ونواحي الحجاز ؛ فاستحالت صبغة الملك اليهم ، وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الملك بالنبوة منهم ، فكانت فيهم الدول الاسلامية كلها إلا بعضاً من دولها ، قام بها العجم اقتداء باللة وتمهيداً للدعوة » . وهكذا أسفر النضال لظهور الاسلام عن تحول في الرياسة ، وانقلبت الآية فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد في انزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب

وكان مصرع الأندلس خلال إحدى هذه المعارك الداخلية ، وما زالت قصة السلطان أبي الحسن ، وأخيه الزغل ، وابنه عبد الله أبي محمد ، وانشقاق المملكة الصغيرة في أذق ساعات الخطر إلى شطرين ، والتجاء أبي عبد الله إلى ملك النصارى لينصره على أبيه وعمه ، ثم انتهز النصارى هذه الفرصة لا يقاع ضربتهم الأخيرة بتلك المملكة التي مهدت لهم سبل الظفر بتمزيق بعضها بعضاً ، وتلك الأمة السلعة التي لم تعرف قط أن تواجه الخطر متحدة الكلمة والقوى — ما زالت هذه كلها عبرة العبر ، وكان مصرع الأندلس هذه المرة بغيراً محققاً ، فسقطت قواعد الباقي تبعاً في يد النصارى ، وسلت غرناطة أخيراً ، ووقعت النتيجة المحتومة ، وطويت صفحة الدولة الإسلامية في الأندلس ، ولم يمس جيل أو اثنان حتى طويت صفحة الإسلام كله ، وكل آثاره وذكرايته من اسبانيا

وقد كانت مأساة الأندلس وما زالت عبرة بالغة ودرسا خالداً للعالم الإسلامي كله . ولكن العالم الإسلامي لم يعتبر بهذه العبرة ، ولم يع هذا الدرس ، وما زال التفرق يمزق أوصاله حتى التهم الغرب الجشع معظم أشلائه ، وأضحى الإسلام ذليلاً في أرضه تحقق عليها أعلام النصرانية

فأني يسير الإسلام ؟ ومتى يدرك العالم الإسلامي قوة الاتحاد ؟

محمد عبد الله هاشم
الحمامي

ظهر حديثاً كتاب :

في أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من ادارة مجلة الرسالة ٣٢ شارع البدولى — القاهرة

وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً خلاف أجره البريد

تنزع ما بيد الأخرى ، وألقى عدو الأندلس الخالد — اسبانيا النصرانية — فرصته السانحة ، فأخذت تواب دويلات الطوائف بعضها على بعض ؛ وملوك الطوائف يرتعون في أحضان النصارى ، ويلتمس كل محالفهم على خصمه ومنافسه . وكادت الأندلس يومئذ تسير مسرعة إلى قدرها المحتوم ، وانتزع النصارى كثيراً من قواعدها وأراضيها ، لولا أن ظهر في الميدان عامل جديد ، هو قيام الدولة المرابطية فيما وراء البحر ، ومقدم أميرها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس على رأس جنوده البربر ، مليئاً داعى الفوث من جانب ملوك الطوائف ؛ فهنا استطاعت الدولة الإسلامية أن تنسى خلافها مدى لحظة ، وأن تلقى على النصرانية بمؤازرة المرابطين هزيمة ساحمة في سهول الزلاقة ؛ ثم افتتح المرابطون الأندلس ، وأقاموا بها دولة جديدة ، ولكن الصرح القوى الباذخ كان قد أخذ ينهار ؛ ولم يدم تماسك الدولة المرابطية طويلاً ، فقامت بالأندلس ملوك طوائف بربرية جديدة ، وعادت الأندلس تسير إلى فناؤها ، وجاء الموحدون بمد المرابطين ، فوصلوا دولة البربر بالأندلس مدى حين

ثم كانت دولة بني الأحمر بقرناطة ، وكانت أندلس جديدة ، ولكن صغيرة لا تمدو القطر الجنوبي المسمى بهذا الاسم ؛ وكانت اسبانيا النصرانية قد نمت واتسع نطاقها ، واستولت على قواعد الأندلس وثغوره العظيمة : قرطبة مهد الإسلام ، وطليلة ، وأشبيلية ، ومرسية ، وبلنسية ، ومرقسطة وغيرها ، وسطمت في مملكة غرناطة ، مدى حين ، لحظة من عظمة الأندلس الذاهبة وحضارتها الزاهرة ، واجتمعت أشلاء الدولة الأندلسية العظيمة في هذه المملكة الصغيرة المتواضعة ، وشملت الممالك النصرانية الشمالية مدى حين بخلافها الداخلى . ولكن الأندلس كانت تشمر بمصيرها شعوراً قوياً ، واستطاع رجال مثل ابن الخطيب وابن خلدون أن يستشفوا بصرهم الثاقب ذلك الصير المروع الذى تسير اليه مملكة غرناطة . ذلك أن نفس الخلاف الداخلى الذى قامت عليه الدولة الإسلامية منذ البداية ، واستمر يدفع الأندلس إلى مصيرها خلال القرون ، كان يمضف أيضاً بهذه المملكة الصغيرة ، ولم يمض بعيد حتى أخذت تمزقها المعارك الداخلية ، ويثب أمراؤها بعضهم ببعض ، ويستمدون خلال هذه المعركة الخطرة ، المدو الرابض التربص بهم جميعاً